

جان جاك روسو
الاتجاه الطبيعي في التربية

د. محمد جهاد جمل *

لا تتوافر لدى الطفل نية لارتكاب سوء ما، إذ من القواعد الثابتة لدى جان جاك روسو أن الحركات الأولى للطفل هي حركات مستقيمة، فلا يوجد في القلب البشري فساد أو عيب أصيل، وبالتالي لا يقوم بعمل غير الخير عند استجابته لطلب الطبيعة، فلا يصبح صالحاً أو طالحاً إلا بما يباشره من صلات، وعندما يفعل شيئاً لأنه سمع ورأى. غير أن الطفل يمكن أن يصنع سوءاً (يجرح نفسه /يكسر أثاثاً) لكن دون أن يرتكبه، لأن فعل الضرر متوقف على نية الأذى التي لا تتوافر لديه مطلقاً.

* باحث سوري



وإذا أحدث الطفـل بعض الخلل فيجب ألا نعاقبـه على إهمال منا، لأنه من المناسب إقصـاء الأطفال إذا ما تركوا أحراراً عن كل مـا يجعل حريتهم تكلف ثمنـاً أقل يجعل في متناولـه أشياء ثمينة سريعـة العطب، كما لا يجب ألا نلومـه على ذنـوب اقترفناها فهو يفسد بسوء يـراه أكثر من سـوء نعلمه إياه، وعندما يكسر الأمتعة التـي يستعملها يجب عدم الإسراع بإعطائه بدلاً عنها، بل يجب أن يشعر بالحرمان وفي حالة ما إذا كسر النوافذ يجب ترك الريح تلطمه وعدم المبالاة بزكامه قبل الإقدام علـى إصلاح الزجاج. وعلى كل يبقـى السكوت عند حـدوث الخلل ذا فائدة كبيرة فالطفل قد يسـيء الكلام الذي يتلقاه بلا انقطـاع ويفسر الإيضاحات المطولة على شاكلته.

يرى روسو في إميـل أن « .. الإنسان يولد ضعيفـاً، وهو في حاجـة إلى رعاية، وهذا لا يأتي إلا عن طريق التربيـة.. فالتربية تأتينا من الطبيعة، أو من الأشياء، أو من الناس، وما نشوء خصائصنا وأعضائنا نشوءاً باطنياً هو تربية طبيعية، وما نكتسبه بتجربتنا الخاصة ممـا يحيط بنا هو تربية الأشياء، وما نتعلمه من أعمال النشأ هو تربية الناس.

والواقع إن تربية الطبيعة لا تتوقف علينا مطلقاً، وتربية الأشياء لا تتوقف علينا إلا من بعض النواحي، وإن تربية الناس وحدها هي التي تسيطر علينا فعلاً.

وإذا كانـت حياة الإنسـان مرتبطة بهذه الأنواع الثلاثة من التربية، وكانت التربية التي تأتينا من الأشياء والتربية التي تأتينا من الناس موجهة، فإن التربية الطبيعية هي تربية ذاتية نابعة من الفرد نفسه.

النص السابق مأخوذ من الكتاب الأول من رواية إميل أو التربية (جان جاك روسو، صدر في باريـس سنة ١٩٦٦، ويقع في ٦٢٩صفحة وهو مقسم إلى خمسة كتب.

لقد كانت روايتـه «إميل أو التربية» التي نشـرت سنة ١٧٦٢ من أهـم الكتب التربوية خلال القرن الثامن عشر وأوسعها تأثيراً على الفكـر التربوي الحديث، فقد جاء إلى جانب مؤلفاته الأخـرى في إطار النزعـة الفكرية التـي سادت هذه الفـترة في أوروبا والمتمثلة في حركـة التنوير والنزعـة الطبيعية اللتين تأسستا على نقد شديد لكل القيم الإقطاعية السائدة آنذاك والمتمثلة :

سياسياً: في سيادة الحكم المطلق المستبد (مثلاً في فرنسا على عهد لويس ١٤و١٥).

اقتصادياً: فقد كانت الزراعة بدائية في طرقها وأساليبها، (ففـي فرنسا مثلاً ١/٥ الأراضـي كان يملكـه رجـال الديـن و ١/٥

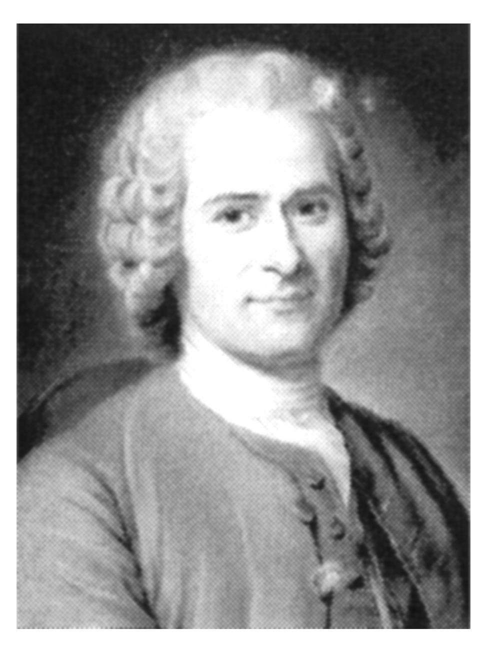
للنبــلاء. وكان ٣/١ مجمــوع الأراضي يبقى معطلاً من غير زراعة كل سنة.

اجتماعيــاً: نجد الطبقــة الأرستقراطية تعيش في عالم خيالي من البذخ والترف، و في المقابل الســواد الأعظم يعيش في ذل ومهانة وفقر (ألبير سوبول).

وعلى الرغم مما لحركة التنوير (من أهم أقطابهــا فولتير) من مزايا في تحرير الفكر من سيطــرة التقاليد والخرافــات ومقاومة النظــم الاستبدادية الفكريــة والاجتماعية (الكنيســة، السلطة، المجتمــع) في التمهيد لحــركات إصلاحيــة أكثر واقعيــة واتصالاً بحاجــات عامة الشعب. فقــد أخذت عليها عدة مآخذ :

- إنها حركة أرستقراطية هدفت إلى إنشاء أرستقراطية عقلية على أنقاض أرستقراطية الأســرة والنصــب والكنيســة، ولم تهتم هذه الحركة بمجموع الشعب وبالطبقات الدنيا بل كانوا يحتقرونهم ويعتقدون أنهم غير جديرين بتحكيم العقل (سعد مرسي أحمد).

- إن أتبــاع هــذه حركــة -في محاربتهم للديــن ـــ لم يفرقــوا بين الديــن في سموه وبساطتــه، وبين الدين الممثــل في تصرفات الكنيســة ورجــال الديــن، وكانــت النتيجة لرفضهم ولدعوتهم إلى التحرر الفكري على أســس عقلية ماديــة أن انتشرت الفوضى في



النظــام الاجتماعي، والإلحــاد في الاعتقاد والإباحية في الأخلاق (بول مترو).

- إن حركــة التنويــر كانــت سلبيــة في انتقاداتها للأوضاع والمؤسسات القائمة، وإنها لم تولي أيّة عناية للعواطف والمشاعر الإنسانية وكانت تبالغ في مدح المدنية.

هــذه المآخذ التي اعــترت حركة التنوير في النصــف الأول من القرن ١٨ دفعت بعض مفكــري هذا القــرن إلى الانفصال عن هذه الحركــة والمناداة بحركــة أو مذهب جديد، ومن أبرزهم الفيلسوف والمربي الفرنسي جان جاك روسو الذي ظهر في النصف الثاني من القــرن ١٨ بمذهبه الطبيعــي الجديد الذي

يقوم على الإعلاء من شأن الطبيعة المادية والطبيعة البشرية والحط من شأن المدنية القائمة في عصره والدعوة إلى تنظيم المجتمع وإعادة بناء الدين بما يتفق والطبيعة البشرية والإيمان بالطبيعة الخيرة للإنسان وغيرها من المبادئ التي ركز عليها في روايته «إميل».

شرح النص ودراسته:

تكوين الفرد.....موجهة من قبل المجتمع..... تربية الناس.

تتم عن طريق التجارب الذاتية.....تربية الأشياء.

تتم تمشياً مع النمو التلقائي الذاتي للميول الفطرية.....تربية الطبيعة.

تربية الناس: هي تربية موجهة من قبل المجتمع لتصقل الفرد في إطار الجماعة.

تربية الأشياء: ترتبط بالتجارب والخبرات الشخصية للطفل التي تؤثر في تربيته، إذ بواسطتها سيتبين أن هناك أشياء موجودة بالفعل ومستقلة عنه والتي سيستفيد منها في تجربته، ومن ثم لا يجب أن نعارضه إذا أخطأ فالتجربة هي وحدها كفيلة بإصلاح خطئه.

تربية الطبيعة: نوع من التربية يدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه ويلائم ميوله ورغباته ويحث على تشجيع سائر إمكانياته الفكرية والعاطفية والأخلاقية واستغلالها في تربيته إلى أقصى قدر مستطاع، وإعطاء الطفل أكبر نصيب من الحرية، وتقوية صلته بالطبيعة وبما فيها من حيوان، ونبات، وجماد.. وأن يفكر المربي في ميول الطفل ونزعاته الفطرية ويراعي ما يميل إليه.

تحليل ومناقشة: يعتبر روسو تربية المجتمع (الناس) تربية موجهة لا تأخذ بعين الاعتبار إمكانيات الطفل وحاجياته، ومادام المجتمع فاسداً فإن هذه التربية ستكون بدورها فاسدة، وإن تصحيح التربية يكمن بالرجوع إلى التربية الطبيعية.

فكيف حسب روسو التربية الطبيعية حلاً لمساوئ التربية الاجتماعية ؟

يضع روسو في مستهل كتاب إميل المبدأ الأساسي للتربية حيث يقول: «كل شيء حسن مادام في يد الطبيعة، وكل شيء، يلحقه الدمار إذا مسته يد الإنسان». فنحن نستمد تربيتنا من ثلاثة مصادر: الطبيعة، الإنسان، الأشياء، وإذا لم تتلاءم هذه المصادر ساءت تربية الفرد.

لقد كانت الآراء السائدة عن الطبيعة البشرية على أنها سيئة، وأن الهدف من التربية هو اقتلاع هذه الطبيعة وأن تحل محلها طبيعة أخرى يشكلها الإنسان. ولقد عارض روسو هذا الرأي ونادى بالتربية السلبية «إن أول تربية تقدم للطفل يجب أن تكون سلبية وهذه التربية السلبية لا تتكون

من تلقـين مبـادئ الفضيلة والحـق، ولكن قوامهـا المحافظة على القلب مـن الرذيلة، وعلـى العقل من الـذل».(Emaile ou L Education op.p: ٣٤).

فـإذن وسيلـة التربية هـي النمو الحر الطليق لطبيعـة الطفل ولميوله الطبيعية. ولم يقصد روسو بالتربية السلبية أن تكون هناك تربية مطلقة، وإنما أراد أن تكون هذه التربية مخالفة لما كان معهوداً من النظم التربوية في ذلـك الوقت، فالتربيـة السلبية لا تعني فترة سكوت وكسل، ولكـن فترة يحمى فيها الفرد من الرذيلة.

وإذا ما طبقت التربية السلبية على التربية البدنية فإن روسـو يؤكد على مطلق الحرية للطفل وأبسط أنواع الأغذية واستنكار أنواع العـلاج الطبي، وإذا ما طبقـت على التربية العقلية للطفل نجد روسوينادي بعدم الاهتمام بالإعداد العقلي للطفل حتى ما بعد ١٥سنة، وإذا ما طبقـت على الناحية الأخلاقية نجد روسو يركز على مبـدأ التدريب الخلقي عن طريق الجزاء الطبيعـي أي أن المربي يمكنه أن يقـوم أخلاق الطفل طالمـا يتمكن من أن يبين له أن العقوبة كانت طبيعية وأن لا دخل للعامل الإنساني فيها مطلقاً.

وهكـذا نجد روسو يربط ما بين الطبيعة وسـير المجتمع ونـدد فيها بالحضـارة وما تجر إليـه من فساد وإتـلاف، وهذا الفساد هـو أساس تعاسة الإنسانيـة، لهذا ينص أن تكون غاية التربية الطبيعية هي تنمية ملكات الإنسان حتى يستطيـع مكافحة الحياة بقوة وصلابـة، وأن يقـوي ذاتـه إلى أقصى حد وتلك غاية تتناقض مع ما ترمي إليه التربية الحالية التي تسعى إلى صقل الفرد في إطار الجماعـة وتقلص ذاتيته مخافـة أن يتنافر النظام الاجتماعي.

هذه التربية يراها روسو تعسة تسلب المرء أكـبر نعم الحياة فهي تسلبه قـوة الجسم إذ تحبسـه بين الجدران وتسلبـه ملكة التقدير إذ تجعلـه لا يـرى بعينيه ولا يسمـع بأذنيه وإنما يرى بعيون المحيطين به ويسمع بآذانهم وتسلبـه دقة النظر للأمور إذ تأخذ الجماعة وقته، هذا الفرد المصقول يفنى في الجماعة ويعيش لها على خـلاف رجل الطبيعة الذي يعيشـ لنفسـه، فروسـو لا يعنيـه أن يكون تلميـذه (إميل) قد أعد للجيشـ أو للكنيسة أو للقانـون، لأن الطبيعة قد دعته لأن يكون رجلاً قبـل أن يختار له أبواه حرفة، فالحياة هي الحرفة التي يفضل روسو أن يعلمه إياها، والهدف الحقيقـي لدراسته هذه هو الرجل وبيئتـه. ومن ثمة لزم أن نعمم نظرتنا ونعتبر أن الطفل الذي نربي هـو معرض للحوادث الإنسانيـة والطبيعيـة لـذا يستحسن أن لا

نتركه بين الجــدران متقوقع فيها لا يتعرض لقســاوة الطبيعة، فهذا حســب روسو طفل ضائع. فيجــب أن يحس معنى الألم والحزن، وندع جسمه يتكيف مع فصول السنة، يتحمل العطش، الجوع، التعــب، الشقاء.. فهذا من شأنه أن يعوده على المصاعب التي سيواجهها وهنــا يلتقي مع جون لوك حيــث نادى هذا الأخير حينما يتحدث عن التربية البدنية من أن الطفــل يجب أن يحيــى في الهواء الطلق والشمس عاري الرأس حافي القدمين لأن من شأن التربية الخشنة أن تقويه. (عبد الدايم: ١٩٨١، ١٦٠).

ويذهــب روســو إلى أن الطبيعة تريد أن تربــي الطفــل، فلماذا نقــوم نحــن بإفراز تصــورات عليه كمــا يجب أن يكــون؟ لندع الطفل يتكيف مع أهوائه كما أرادت الطبيعة، إننــا نرتكــب أخطــاءً دون أن نشعر بذلك، بحيث نعمل على تلبية رغباته وأحياناً عتابه دون أن يتعــرف على خطئــه فنساهم بذلك في تعليمه كيف يلقــي الأوامر وكيف يحصل على ما يريد وكيف يخضع. وهذا كله قبل أن يتعلم الكلام.

لهــذا إذا أردنا أن يحافــظ الطفل على طبيعته ـــ يتساءل روسو ـــ علينا بمراقبته منذ اللحظة الأولى من ولادته ولا نفارقه أبداً من غير أن نغير ميولــه، وعلى الأم أن تسهر على تغذيته.

وعلى الرغم مــن بعض ايجابيات مفهوم روســو عــن الطبيعــة، فإنه يبقــى مفهوماً ميتافيزيقياً تجريدياً ورومنسياً لا يأخذ بعين الاعتبــار دور الثقافة الأساســي في المجال التربــوي. إن روسو يبالغ في معارضته لتدخل الإنســان في العملية التربويــة، واتهامه إياه مسبقاً بأنه تدخل سلبي وأصل كل الشرور.

والواقــع إنه يستحيــل علينا (في القرن ١٨ نفســه) تصور أطفال مثاليين يتم عزلهم لحظــة ولادتهم وتركهــم في غابة بعيداً عن التجمعات الحضرية ليتعاملوا مع الأشياء دون وساطة إنسانيــة. إن تدخل الإنسان كوساطة في عمليــة التربية يتم منذ اليوم الأول لولادة الطفل ويتعمق يوماً بعد يوم، لهذا يقال عادة إن الأم ترضع لطفلها عبر ثديها نمط التفكير الذي سيحــدد شخصيتــه مستقبلاً (جمال هاشم، عدد٢٧٧٧، ت ١٩٩١، ١٤).

كمــا أن كل أنواع المحرم (الطابو) وطرق المعاملة والتحية كلهــا ثقافة لذا يستحيل أن نتحدث عن رضيع متروك للطبيعة. لهذا فهو في حاجــة إلى والديه، وحينمــا يصل إلى يد المعلم تكــون أهم معالم شخصيته قد تحددت سلفاً، فقد أكد فرويد أن أهم معالم الشخصية تتجدد خلال السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل داخل أسرته. فهــل يمكن أن نتحدث

عن طفل كمادة خام نتركها للطبيعة ؟

إن أقصى ما يمكن أن نقم به هو ترك نوع من الحرية الموجهة للأطفال حتى يكتسبوا بعض المهارات الجديدة أو للتمرن على حل بعض المشكلات بشكل ذاتي، أما شحن التلميذ ضد الحضارة أو عزله عنها؟ فهذه دعوة غير سليمة، لأن للحضارة سلبيات وايجابيات، ونحن حينما نعده للحياة علينا إدماجه في واقعه وتوضيح السلبيات والإيجابيات معاً حتى لا يصطدم مستقبلاً. ونحن حينما نتحدث عن الثقافة فإننا نتحدث عن مفهوم يتطور مع الزمن فأشياء المحيط تتغير، مثلاً لعب الأطفال قبل ٢٠ سنة ليست نفسها اليوم. كما أن تدخل المربي لتوجيه حرية الطفل النسبية مسألة أساسية.

وكنَّا ننتظر أن تتجه عناية روسو إلى تربية سواد الشعب الذي كان مهملاً في فرنسا؟ لكن كتاب إميل أو التربية يقرر أن الفقراء والضعفاء في غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم في الحياة يكرههم على احتمال العيش الذي هم فيه ويبرر ذلك بكون التربية الطبيعية تريد أن تكوّن رجلاً تتضح فيه ملامح الإنسانية، ومن ثمة فتربية الفقير على الغني تبدو أقل أهمية. (إميل)، ولعلَّ ما ذكره روسو في اعترافاته من أنه كتب استجابة لأم فاضلة هو سبب هذا التناقض بين مركزه كمصطلح ديمقراطي وبين ما ذكره في روايته إميل ولا شك أن هذه الأم الفاضلة هي إحدى النبيلات ممن كان يعيش في كنفهن.

من جهة أخرى يؤمن روسو باختلاف طبيعة الرجل عن طبيعة المرأة وبضرورة تربيتها بما يتماشى مع هذا الاختلاف أنها خلقت لمسة الرجل ولهوه، وأنها ليست سوى تابع من توابعه. ولعل روسو يجعل نفسه مقياساً. فقد لاقى عدداً من النساء بلغ حبه لهن وعجزه أمامهن، ومبلغ استخفافهن به ما كان ينتهي به إلى كراهتهن. لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن ويجب أن تكون النساء جميعاً من صنف تيريز لفاسير جهالة وغباء؟ فإذن روسو كان ذاتياً حين معالجته موضوع تربية المرأة.

ومع ذلك فقد أحدث روسو ثورة كاملة في الفكر التربوي و في النواحي العملية للتربية أكثر من أي شخص آخر، فهو أول من نادى بحقوق الرجل العادي السياسية والاجتماعية، كما أن كتابه إميل أول كتاب دافع عن سن الطفولة وميزه عن سن الرشد ونادى بتربية ملائمة لأعمار الأطفال ولنموهم النفسي. فقد قال عنه المؤرخ مورلي: «لقد كان روسو أول من رفع صوته في جنبات أوروبا المهذبة، وجعلها تصغي إلى تلك الأصوات الغريبة، وتلك الأصداء المنبعثة من غياهب الظلام المبهم الذي تتحرك فيه الجماهير».

الهوامش

- صالح عبد العزيز: تطوير النظرية التربوية، القاهرة مصر، ١٩٦٤.
- تركي رابح: النظريات التربوية، ديوان المطبوعات (الجزائرية) الجامعية، الجزائر ١٩٨٢.
- عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، ط٤، ١٩٨١.
- رومان رولان: آراء روسو الحية ترجمة محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٦١.
- بول منرو: المرجع في التربية: ترجمة صالح عبد العزيز، حامد عبد القادر، مكتبة النهضة المصرية د.ت.
- ألبير سوبول: الثورة الفرنسية، ترجمة غسان شديد، سلسلة ماذا أعرف؟ عدد ٤٥.
- سعد مرسي أحمد، إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة.

